

المجتمع ورهانات التربية على القيم في فكر إميل دوركايم: مقارنة نظرية

Society and the Bets of Value Education in Emile Dorkaim's Thought: A Theoretical Approach

معبود مريم

جامعة محمد لمين دباغين - سطيف 2،

(الجزائر)

Meryem.kharfallah@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/07/01 القبول: 2021/12/04

تاريخ النشر: 2022/05/13

ملخص: راهنت الكثير من المجتمعات المتقدمة على المنظومة التربوية كي تنهض من جديد وتتجاوز زمن الصراعات والتناحرات التي عايشتها في فترة مظلمة من تاريخها، فرفعت شعار النهضة بالتربية في سبيل التأسيس لمنظومة قيم تربوية واجتماعية راقية والحد من انتشار المشكلات المجتمعية، وتعتبر أفكار إميل دوركايم التربوية من الركائز التي قام عليها الإصلاح المجتمعي الفرنسي، الذي ركز على التنشئة الاجتماعية القاعدية للفرد ورأى بأن الإصلاح المجتمعي لا بد وأن يبدأ من قاعدة المجتمع وصولاً إلى قمته، من خلال الاهتمام بالتربية القيمة الصحية للطفل وتعزيز الجانب الأخلاقي في شخصيته، وتجويد الفعل التربوي ونبذ الممارسات التربوية القديمة التي لم تكن تراعي خصوصية المرحلة العمرية للفرد ولم تكن تتماشى مع متطلبات بناء المجتمعات الحديثة، ويهدف هذا المقال إلى عرض الدور الحقيقي الذي لا بد أن تقوم به المؤسسات التربوية المجتمعية في تعزيز القيم الأخلاقية لدى الطفل حسب تصور إميل دوركايم، لتكون أداتنا في هذه القراءة كتابي دوركايم "التربية الأخلاقية" و"التربية والمجتمع".

الكلمات المفتاحية: تربية؛ قيم؛ قيم تربوية؛ المجتمع؛ أخلاق.

Abstract: Many developed societies have bet on the educational system to rise again and overcome the times of conflicts and rivalries that they experienced in a dark period of their history, So She raised the slogan of renaissance by education in order to establish a system of high educational and social values and reduce the spread of community problems, that's why Emile Dorkaim's educational ideas are one of the pillars of French community reform. Who focused on the grassroots socialization of the individual and felt that community reform should start from the base of society to its peak, By paying attention to the healthy value education of the child and developing the moral aspect of his personality, and promoting the educational act and rejecting old educational practices that did not take into account the specificity of the age stage of the individual and were not in line with the requirements of building modern societies, This article aims to present the real role that community educational institutions must play in promoting the ethical values of the child From the view point of Emile Dorkaim, To be our tool in this reading, Dorkaim Books, "Moral Education" and "Education and Society".

KeyWords: Education; values; Educational values; society; ethics.

المقدمة:

جلبت موجة التغيرات الاجتماعية التي شهدتها المجتمعات البشرية على مر السنين الكثير من التطورات في جميع مجالات الحياة الاقتصادية منها والفكرية، الثقافية وحتى السياسية، وأنحت معها تفتحا علميا قاص من خصوصية المجتمعات وحد من قدراتها على مواجهة التهديدات التي تعترضها في جميع النواحي، هذا التفتح أثر كثيرا على هوية المجتمع وسمح بدخول عادات وسلوكيات بعيدة كل البعد عن مبادئه ومعتقداته وخلق آفات اجتماعية كثيرة وخطيرة في نفس الوقت غزت بشكل رهيب الحياة اليومية للفرد وهددت أمنه واستقراره، والإشكال الأكبر أن هذه الآفات تتطور وتقدم وسائل انتشارها واحترافيتها تماشيا مع تطور المجتمع، وأصبحت أكثر تعقيدا مما كانت عليه مع التسارع التكنولوجي والرقمي وتطور وسائل الإعلام والاتصال.

فقد تمكنت هذه القوى الجديدة من التمسك بمقاليده الأمور وأصبحت تمثل الأصول التي تنفرع عنها القضايا والمشكلات التي تعصف بالعالم شرقا وغربا، وكمثال على ذلك أخذت الجرائم والسلوكيات المنحرفة تأخذ أبعادا أخرى مختلفة عما كانت عليه سابقا من حيث الأسباب والوسائل، فظهر ما يسمى بالجرائم الالكترونية والابتزاز عبر وسائل التواصل الاجتماعي، وأصبحت الفئات الاجتماعية المختلفة خاصة الشابة منها تتعد رويدا رويدا عن هويتها وتبحث عن بدائل أحرقتناي مع قيم مجتمعاتها، وأصبح العنف اللفظي والجسدي فعلا قارا في يوميات الفرد، فتراجعت قيم المجتمع وتضرر خلقه العام وأصبحت المؤسسات التربوية عاجزة تماما عن مواجهة هذا الزحف المتسارع.

وتراجع التربية واعتمادها على الوسائل التقليدية وعدم مواكبتها للتطورات الراهنة دفع ثمة الفرد بالدرجة الأولى والمجتمع بالدرجة الثانية، لأن تطور وسائل الإعلام والاتصال سمح للطفل بالخروج من حيز أسرته ومدرسته إلى عالم آخر استمد منه قوته وأفكاره وسيطر على أفعاله وسلوكاته، كل هذا يحدث والمدرسة مازالت رهينة وسائل تربوية وتعليمية قديمة ولا تزال تسير بمضامين ومناهج دراسية تحوي أفكارا قد تكون في ظاهرها متماشية مع الانفتاح العالمي ولكنها عمليا بعيدة كل البعد عن واقع الطفل ومجتمعه.

فنهضة الأمم وازدهارها يبدأ منطقيا وعمليا من مؤسساتها التربوية (الأسرة، المدرسة، وسائل الإعلام...) والنشء والشباب هم خير منطلق لهذه النهضة، ومنبع الأمل لأي مجتمع يرغب في أن يبعث نفسه من جديد، وهذا بالضبط ما تفتن له عالم الاجتماع الفرنسي إيميل دوركايم **Emile Durkheim** الذي استمد أفكاره التربوية من الواقع الذي يسود مجتمعه، والأزمة الأخلاقية التي كان قد عايشها هو شخصيا في ظل النهضة الأوروبية أين تحولت المجتمعات من الطابع التقليدي إلى الطابع الصناعي، ونتج عن هذا التحول الانتشار الواسع لظواهر اجتماعية تهدد استقرار النسق الاجتماعي مثل الانتحار وجرائم السطو والقتل والسرقة والتحايل وغيرها، فسعى من خلال أفكاره إلى رسم استراتيجية جديدة تستهدف إصلاح التربية وإيقاظ الشعور الأخلاقي العام، وقد استغل مكانته ووظيفته كأستاذ بجامعة السوربون الفرنسية كي يروج لهذه الاستراتيجية من خلال محاضراته التي عالج فيها قضية توظيف التربية في الحفاظ على المنظومة القيمية للمجتمع الفرنسي.

اهتم إميل دوركايم في محاضراته الجامعية بالمشاكل الاجتماعية وخاصة المسألة القيمية، وحاول من خلال ذلك أن يجعل الشباب الفرنسي نقطة بداية لفكرة الإصلاح التي كان يحملها، فكرة كانت ترمي أساساً إلى بناء مشروع مجتمعي نموذجي بمقاييس علمية، تكون التربية ركيزته الأساسية وعموده الفقري، وهدفه في ذلك هو إحياء القيم الاجتماعية السليمة وتوطيد علاقة الفرد بالدولة وغرس قيم نبد العنف والتطرف في مقابل تعزيز قيم التسامح والتعايش في كنف العدل والمساواة، وقد ظهرت تعاليم هذا المشروع حلية في مقالاته ومحاضراته التي قام طلابه بجمعها في عدة مؤلفات، وتهدف هذه الورقة إلى عرض أهم العناصر النظرية التي بنى عليها إميل دوركايم تصوره لمشروع التربية النموذجية الإصلاحية باتباع طريقة التحليل الاستقرائي للبيانات المتضمنة في مؤلفين من مؤلفاته يتناولان المسألة التربوية بطريقة مباشرة وهما كتابي "التربية الأخلاقية" و"التربية والمجتمع" واللذان يعتبران الأداة الرئيسية في هذه القراءة، وذلك من خلال الإجابة على التساؤل التالي:

كيف يمكن تفعيل دور بعض المؤسسات الاجتماعية في سبيل تعزيز منظومة القيم التربوية في المجتمع حسب تصور إميل دوركايم؟

وتندرج تحته عدة تساؤلات فرعية هي:

- 1- ماهي المؤسسات الاجتماعية التي لا بد من تفعيل دورها في تعزيز منظومة قيم المجتمع؟
- 2- كيف يمكن توظيف المؤسسة التربوية -المدرسة- بجميع عناصرها في سبيل تعزيز منظومة قيم المجتمع؟
- 3- كيف تساهم الدولة في تعزيز منظومة قيم المجتمع؟
- 4- كيف يمكن تفعيل دور الفضاء العام من أجل حماية منظومة قيم المجتمع؟

1- الإطار المفاهيمي:

1-1. المجتمع: "يعرف هوبهاوس المجتمع بأنه مجموعة من الأفراد تقطن على بقعة جغرافية محددة من الناحية السياسية ومعترف بها، ولها مجموعة من العادات والتقاليد والمقاييس والقيم والأحكام الاجتماعية والأهداف المشتركة المتبادلة التي أساسها الدين واللغة والتاريخ والعنصر" (بولمزادو، 2013، صفحة 21)

1-2. التربية:

- **التربية بالمعنى اللغوي:** " مأخوذة من الفعل ربى أي غذى الولد وجعله ينمو، وأصلها ربا يربو أي زاد ونما ولها معنى آخر إذا كان مصدرها رب يرب بنفس وزن مد وهو يعني أصلحه وتولى أمره وساسه وقام عليه ورعاه. أما في الإنجليزية Education مأخوذة من الكلمة اللاتينية بمعنى E-ducere أي يقود خارجاً. (شبل و محفوظ، 1999، صفحة 15)

- **التربية اصطلاحاً:** "هي تنمية الشخصيات البشرية الاجتماعية إلى أقصى درجة تسمح بها إمكاناتها واستعداداتها بحيث تصبح شخصية مبدعة خلاقة منتجة متطورة لذاها ولجتمعتها، وليبئتها من حولها". (العمامرة، 1999، صفحة

أو هي: "تهديب ملكات النفس العقلية والأخلاقية الكامنة فيها وهدايتها لأن تؤدي وظيفتها التي خلقت لها وتهيئتها إلى اتباع قوانينها في مدارج الكمال. (علي، 2002، صفحة 134)

ويعرفها إميل دوركايم بالقول "التربية تنشئة اجتماعية تمارسها الأجيال السابقة على الأجيال اللاحقة -بمعنى آخر- التربية هي الفعل الذي تمارسه الأجيال الراشدة على الأجيال التي لم ترشد بعد، وذلك من أجل الحياة الاجتماعية" (وظفة، 2011، صفحة 49)

1-3. القيم:

- القيمة في اللغة:

تورد المعاجم اللغوية مجموعة من الدلالات لكلمة 'قيمة' وجمعها 'قيم' وتظهر الأصول اللغوية ان كلمة القيمة مشتقة من الفعل 'قوم' الذي تتعدد موارده ومعانيه، فقد استخدمت العرب هذا الفعل ومشتقاته للدلالة على معان عدة منها:

أ- الديمومة والثبات وهو ما يشير اليه أصل الفعل 'قوم' لأنه يدل على القيام مقام الشيء يقال: 'ماله قيمة' إذا لم يدم على الشيء ولم يثبت عليه، ومنه قوله عز وجل "عذاب مقيم" (الشورى 45) أي دائم وقوله: "إن المتقين في مقام أمين" (الدخان 51)، أي في مكان تدوم إقامتهم فيه.

ب- السياسة والرعاية: ومنه ما قالته العرب عن الذي يرب القوم ويسوسهم فالقيم السيد وسائس الأمر، والرجل قيم أهل بيته وقيامهم يقوم بأمرهم.

ج- الصلاح والاستقامة: فالشيء القيم له قيمة بصلاحه واستقامته ومنه قوله عز وجل، (دينا قيما) (الأنعام 161) أي مستقيما، وأورد الرَّاغب أن الدين القيم هو الثابت المقوم لأمر الناس ومعاشهم، وأمر قيم، مستقيم وخلق قيم، حسن. (ابراهيم، 2013، صفحة 19)

- القيم اصطلاحا:

"القيم هي مجموعة من المعايير والمقاييس المعنوية بين الناس، يتفقون عليها فيما بينهم، ويتخذون منها ميزانا يزنون به أعمالهم، ويحكمون به على تصرفاتهم المادية والمعنوية"

يرى 'باير وتوفلر bayer tofler' أن في القيم التي يتبناها الأشخاص عوامل مهمة ومحددة لسلوكهم، فعندما يؤدي المرء سلوكا معيناً، أو يختار مسارا مفضلاً له على سلوك أو مسار آخر، فإنه يفعل هذا وفي ذهنه أنّ السلوك والمسار الأول سيساعده على تحقيق البعض من قيمه أفضل من السلوك الآخر.

ويرى 'هالستد halstead' أن القيم هي المبادئ والمعتقدات الأساسية، والمثل والمقاييس أو أنماط الحياة التي تعمل مرشدا عاما للسلوك، أو نقاط تفضيل في صنع القرار، أو لتقوم المعتقدات والأفعال التي ترتبط ارتباطا وثيقا بالسمو الخلقى والذاتي للأشخاص. (عماد، 2006، صفحة 22)

1-4. التربية على القيم: يمكن تعريفها إجرائيا بأنها عملية إعداد الناشئة على الأخلاق السوية التي اتفق عليها المجتمع وهي مسؤولية تضطلع بها المدرسة والأسرة ووسائل الإعلام وكل مؤسسة اجتماعية تكون التربية هي أحد

وظائفها، كما تعتبر التربية على القيم مشروعاً متكاملًا يستهدف الاستثمار المعنوي في المورد البشري، بتلقيه المبادئ والأخلاق السامية التي تؤهله ليكون فرداً صالحاً في بيئته، يدرك ماله من حقوق وماعليه من واجبات.

2- أهمية الدراسة:

- في ظل طغيان القيم المادية على الحياة الاجتماعية للأفراد وانتشار الكثير من الممارسات القيمية المنحرفة، تبرز أهمية البحث عن نموذج تربوي يتلاءم مع واقع المجتمع وقادر في نفس الوقت على مواجهة التغيرات الاجتماعية المتسارعة في خضم الثورة المعلوماتية؛

- وتعتبر هذه المقاربة إسهاماً مهماً يضاف إلى مجال المقاربات النظرية التي تهتم بإعطاء تفسيرات سوسيو تربوية لطبيعة العلاقة المتداخلة بين مفهومي التربية والقيم ودور كل منهما في ترقية الحياة الاجتماعية؛

3- أهداف الدراسة:

- تهدف هذه الدراسة في سياقها العام إلى توضيح معالم المشروع التربوي الإصلاحي الذي أراد إميل دوركايم بعثه في المجتمع الفرنسي الذي كان يعاني ظروفًا سوسيو تاريخية وسياسية صعبة.

- كما تهدف إلى إبراز الدور التربوي الحقيقي الذي لا بد أن تقوم به المؤسسات الاجتماعية في سبيل إعداد جيل القيم

4- لمحة عن المسار العلمي لايميل دوركايم (1858-1917):

إميل دوركايم "مفكر اجتماعي ولد في مدينة إيبينال Epinal في شرق فرنسا، عندما أتم دراسته الثانوية تقدّم لمسابقة الدخول في مدرسة المعلمين العليا بباريس وتعلم فيها على يد كبار الأساتذة، وبعد أن تخرج من هذه المدرسة اشتغل بالتدريس في المدارس الثانوية... انكب على دراسة علم الاجتماع في ألمانيا على أيدي أساتذة كبار مثل 'فاجنر' و'شمولر' و'فونت' ويقال أنه تأثر بأفكار هؤلاء أكثر من تأثره بأفكار 'أوغست كونت' ولما عاد من ألمانيا خصّص نفسه لدراسة علم الاجتماع، ومما ساعده أن كلية الآداب بمدينة بوردو بفرنسا أنشأت كرسيًا لمادة علم الاجتماع فعهدت إليه بالإشراف على هذا القسم، فبدأت عنايته تتضاعف في معالجة بعض المشكلات الاجتماعية، وكان مما يميز دوركايم عن غيره من المفكرين الاجتماعيين أنه كان يجمع بين تدريس علم الاجتماع والتربية" (بوتول، صفحة 119)

5- العلاقة بين التربية ومشكلات المجتمع:

يمكن للتربية أن تكون مصدرًا يستمد منه المجتمع الحلول لمختلف الآفات التي تعصف بنظمه ويمكن في نفس الوقت أن تكون التربية هي مصدر هذه الآفات ومغذّيها، وكلا الأمرين يعتمد على مدى إدراك أفراد المجتمع لهذه الوظيفة الحساسة التي تقوم بها التربية وحرصهم على تنقيتها من الشوائب وضبط مسارها لتكون مصدرًا للقيم النبيلة والأخلاق السليمة، والتربية من المنظور الدوركايمي عملية تنشئة منظمة تجعل من الأفراد كائنات فردية ومجتمعية في نفس الوقت، بمعنى تزودهم بما يهتم حاجاتهم الشخصية من استعدادات وحوافز لتحقيق كياناتهم الفردية من جهة وتزويدهم بمختلف الأفكار والإحساسات والقواعد التي تعبر عن ثقافة المجموعة الاجتماعية وتسهم هذه

الأدوات التجهيزية في تشكّل الكائن الاجتماعي، ويعتقد دوركايم بأن غرس المظاهر الجماعية في الفرد بواسطة التربية هو ما يحدد هدف التربية، ومهمة التربية في نظر دوركايم تكمن في أن ينتقل الفرد من وضع أناني وغير اجتماعي إلى وضع اجتماعي" (المدير، 2017، صفحة 189)

وتظهر الوظائف الاجتماعية للتربية في قدرتها على معالجة المشكلات المجتمعية "ويمكن إيضاح تأثير التربية على مشكلات المجتمع من خلال:

- النشاطات التعليمية داخل المدرسة، والنشاطات التثقيفية خارج المدرسة، حيث تستطيع التربية أن تبصّر الأطفال والكبار على حد سواء بمشكلات المجتمع وأبعادها وأسبابها والحلول المقترحة لها، ودور كل فرد من أفراد المجتمع فيها.

- تكوين رأي عام مستنير يساهم في حل المشكلات مع عدم إثارته أو تشكيكه عن طريق تقديم المتناقضات المختلفة، لذلك لا بد أن تقدم القدوة الحسنة للجمهور من خلال البرامج والأنشطة المختلفة.

- العمل على تأكيد الشعور الوطني والانتماء الديني ثم القومي من خلال النشاطات والبرامج التعليمية والتربوية.

- إيمان القائمين على العمل التربوي وقناعتهم به لأنهم هم الذين يقومون بدور المعلم والموجه الحقيقي لباقي أفراد المجتمع. (دخل الله، 2013، صفحة 41)

6-الدور التربوي للمؤسسات المجتمعية:

6-1. دور المدرسة في تعزيز التربية الأخلاقية:

تؤدّي المدرسة دورا هاما في إعداد الطفل للحياة الاجتماعية بتهذيب سلوكياته والعمل على إكسابه المهارات الضرورية التي تساعد على التواصل والاندماج، و يظهر من خلال كتابي ايميل دوركايم أن التربية المدرسية قد حازت على جانب كبير ومهم من أفكاره التربوية، حيث قام بتفكيك عناصرها وتوضيح الدور الحقيقي الذي لا بد أن يؤديه كل عنصر في سبيل تحقيق أهداف وغايات التربية القيّمة، فتطرق في ثنايا مشروعه الإصلاحية إلى الطرق والوسائل التربوية الصحيحة وبيّن كيف يساهم النظام المدرسي في توازن النظام العام، كما أكّد على الصفات التي لا بد أن يتحلّى بها المعلم كي يكون صالحا لأداء هذه المهمة المقدّسة، وتطرق في نظريته إلى جانب مهم من جوانب الحياة المدرسية وهو قضية المكافآت والعقوبات وكيف يمكن استغلالهما استغلالا عقلانيا يضمن تحقيق الغايات التربوية.

أ-أساليب تدريس القيم في المدرسة:

بالنسبة لطريقة تعليم الطفل القيم الأخلاقية في المدرسة فقد طرح دوركايم فكرة تشييء كل ما يدور حول الطفل لصبغه بصبغة عقلية، وتعليم الطفل كيف يرتبط به كما يرتبط بالأشياء التي حوله وجعلها الطريقة الوحيدة الفعّالة لتعليم الطفل ملكة التفكير دون اللجوء إلى الأساليب العقودية إن صح التعبير فقال "ليست هناك سوى طريقة واحدة لإيقاظ الأفكار والمشاعر في روح الطفل دون اللجوء لوسائل غير عقلية أو الاستعانة فقط بتأثير العاطفة العمياء، تلك الطريقة هي أن نجعل الطفل يرتبط ويتصل اتصالا مباشرا بقدر الإمكان بالشيء نفسه الذي

تتعلق به أفكاره ومشاعره هذه هي الطريقة الوحيدة التي نبحث فيها نتيجة لتأثيرها على ضميرنا، وهكذا نجد التربية بواسطة الأشياء صالحة في مجال الثقافة الأخلاقية مثلما تصلح في مجال الثقافة العقلية" (دوركاييم ، التربية الأخلاقية، 2015، صفحة 94)، والمدارس العامة أي المدارس التي تخضع للتسيير المركزي بإشراف الدولة هي المناسبة لتحسيد هذه الفكرة "فالمدارس العامة بحكم وضعها هي الأداة المنظمة للتربية الوطنية، وفضلا عن ذلك فإنه وعلى العكس مما يشاع كثيرا من أن الأسرة هي التي يجب أن تضطلع وحدها بعبء التربية الأخلاقية فإني أقرر بأنّ ماتقوم به المدرسة من التكوين الخلقي للطفل يجب أن يكون على غاية كبيرة من الأهمية، فإن جزءا كبيرا من هذه الثقافة الأخلاقية بل أهم جزء فيها لايمكن تلقينه في أي مكان آخر" (دوركاييم ، التربية الأخلاقية، 2015، صفحة 19) وهنا يتضح أن درجة تأثير المدرسة في التكوين الخلقي للطفل كبيرة وفعالة مقارنة بالتأثير الذي تمارسه التربية المنزلية، فالقيم الوطنية (حب الوطن، التضحية، الحفاظ على الممتلكات العامة،...) والاجتماعية (التضامن، التسامح، احترام الآخر،...) على سبيل المثال هي قيم قد تستعصي على التربية الأسرية - خاصة إذا كان الوالدين من ذوي الثقافة المحدودة- نظرا لكونها تحتاج إلى تخطيط مسبق وبيئة مناسبة ومنظمة كي يستطيع الطفل فهمها واكتسابها، لتظهر في سلوكياته وتفاعلاته اليومية، وهذا ما يجعل المدرسة تتفوق على الأسرة في مجال التربية على القيم.

وتبدأ عملية التربية الأخلاقية حسب تصور دوركاييم من أول يوم يلتحق فيه الطفل بالمدرسة، إذ اهتم بأدق تفاصيل هذه المرحلة كونها الأنسب لبداية تلقين الطفل أولى المبادئ الخلقية فصرح بأن "السن المناسب لتلقين الطفل الأخلاق هو فور دخوله الحياة المدرسية مباشرة وإلا يتعذر ذلك فيما بعد، هنا يتم تهذيب الشعور الخلقي وصبغه بصبغة عقلية بإخضاعه شيئا فشيئا لمبادئ التفكير الخلقي، وهناك طوران أو عصران للطفولة يتميز أحدهما عن الآخر فالطور الأول يقضيه في الأسرة أو في روضة الأطفال والطور الثاني يقضيه في المدرسة الأولية وتسمي هذه المرحلة مرحلة الطفولة الثانية، في الطور الأول يكون الطفل في سن صغيرة جدا وتكون حياته الفكرية ضعيفة وحياته الوجدانية فقيرة وساذجة محدودة الأفق العقلي والخلقي، وهذا ما يجعلها غير مناسبة لتهذيب الشعور الأخلاقي لدى الطفل" (دوركاييم، التربية الأخلاقية، 2015، صفحة 18) وعملية "تكوين الطفل أخلاقيا لا يعني أن نغرس فيه إحدى الفضائل الخاصة ثم نتبعها بثانية وثالثة وإنما يكون في الاستعانة بالوسائل الملائمة لتنمية هذه الاستعدادات العامة بل لخلقها خلقا وبمجرد أن توجد هذه الاستعدادات لا تلبث أن تتشعب بسهولة من تلقاء نفسها حسب ما تقتضيه تفاصيل العلاقات الإنسانية، فإذا ما توصلنا إلى كشفها فإننا نجتاز في الوقت نفسه إحدى العمليات التي يرتبط بها نظام التعليم المدرسي عندنا" (دوركاييم ، التربية الأخلاقية، 2015، صفحة 21) و"التربية الأخلاقية لا يمكن أن تحصر في جدول الفصل الدراسي كما أنها لا تقدم في ساعات معينة بل في كل لحظة لا بد أن تمتزج تلك التربية بكل الحياة المدرسية مثلما تمتزج الأخلاق ذاتها بالحياة الجماعية بأسرها" (دوركاييم ، التربية الأخلاقية، 2015، صفحة 120) وهنا يشير إميل دوركاييم إلى أهمية تدريب الطفل على ملكة التفكير الأخلاقي، واجتذاب التلقين في عملية نقل القيم لأن الواقع قد أثبت فشل هذه الطريقة في تهذيب سلوك الطفل، ورأى أن هذا الأخير يتعلم أكثر

بالتقليد والمحاكاة لهذا لا بد أن يتحلى من حوله بالخلق السليم وأن يظهر ذلك في أفعالهم وسلوكاتهم حتى يكونوا قدوة صالحة لطلابهم.

ب- النظام المدرسي وعلاقته بالنظام الاجتماعي:

وأعطى إيميل دوركايم للناحية التنظيمية أهمية كبيرة في كتابه التربية الأخلاقية وجعل النظام هو العامل الأول المسؤول عن نجاح أو فشل العملية التربوية "فبالنظام وحده نستطيع إن نعلم الطفل الاعتدال في رغباته والحد من مختلف شهواته وتحديد موضوعات نشاطه وان في هذا التحديد لدعامة من دعائم السعادة والصحة الأخلاقية" (دوركايم ، التربية الأخلاقية، 2015، صفحة 44) وجعل مرتبة النظام المدرسي أعلى من كل المراتب موجهة لكل الفاعلين في الساحة التربوية على رأسهم المعلم والطفل، وحدد مفهوم النظام في مجموعة قواعد والتزامات لا بد أن تفرض على الطفل من جهة فقال "في المدرسة تتوافر مجموعة من القواعد التي تحدد سلوك الطفل إذ يجب عليه أن يحضر إلى الفصل بانتظام وان يدخل إليه في ساعة محددة وفي هندام وهيئة مناسبين وهو، في الفصل يجب عليه ألا يعكس صفو النظام، ويجب أن يكون قد استوعب دروسه وأدى ما عليه من واجبات منزلية بعد أن وجه إليها ما يجب من عناية وانتباه، وهكذا نجد أن هناك طائفة من الالتزامات يتعين على الطفل أن يلزم بها نفسه، ومجموع هذه الالتزامات يكون ما نطلق عليه النظام المدرسي، فعن طريق ممارسة هذا النظام المدرسي يستطيع الطفل أن يستوعب روح النظام العام" (دوركايم ، التربية الأخلاقية، 2015، صفحة 13) فقد رأى في النظام المدرسي صورة مصغرة للنظام الاجتماعي، ورأى في تدريب الطفل على احترامه والالتزام به تحضيراً له كي يتأقلم فيما بعد في الحياة الاجتماعية فالطفل "حين يحترم القواعد المدرسية يتدرب على احترام القواعد بوجه عام... فالنظام المدرسي يعد الطفل إعداداً أولياً لاحتمال ما يتطلبه أداء الواجب من رزانة وثبات، والطفل حين يدخل المدرسة لا بد له أن يدرك أن حياة الجد قد بدأت" (دوركايم ، التربية الأخلاقية، 2015، صفحة 143)، ورأى بضرورة تنوع المنابع التي يستقي منها الطفل أفكاره وسلوكاته إذ "هناك دائماً خطر مائل أمام أعيننا وهذا الخطر مصدره إفراط المعلم والوالدين في استخدام تأثيرهما ولذلك يجب أن تتخذ الاحتياطات اللازمة لحماية حرية الطفل ضد هذا الإفراط واحد هذه الاحتياطات التي قد تستخدم بنجاح في هذا الغرض هو ألا نترك الأطفال ينشغون تحت تأثير وسط واحد وألا نتركهم بالأحرى بين يدي معلم واحد لا يتغير وعدم توافر هذا الشرط في التربية المنزلية هو احد أسباب العديدة التي تجعل هذه التربية غير وافية بالغرض.... والمدرسة هي التي تحرره من تلك التبعية المقيدة بشرط تغيير المعلمين..." (دوركايم ، التربية الأخلاقية، 2015، صفحة 139)

وقد حذر من انفلات النظام داخل الفصل المدرسي لما ينجم عنه من أخطار تضر بالطفل والنظام الأخلاقي " فمن الثابت حقا أن الفصل إذا خلا من النظام ظهرت عليه أعراض الانحطاط الخلقى وإذا شعر الأطفال بعدم وجود قوة تحدهم اندفعوا في حالة هيجان نحو التحرر من كل قيد، وسرعان ما يظهر أثر ذلك في سلوكهم حتى خارج الحياة المدرسية ومن اليسير ملاحظة مثل هذه الظواهر في الأسرة حين تتراخى التربية المنزلية إلى أقصى حد ولكن هذا الاندفاع الضار الذي ينتج عن عدم النظام يتضاعف خطره في المدرسة لأنه يكون في هذه

الحالة اندفاعا جماعيا-على اعتبار أن الفصل مجتمع صغير-وكل عضو في هذه المجموعة الصغيرة لا يتصرف عادة كما لو كان منفردا بل إن هناك تأثيرا تمارسه المجموعة على كل فرد ويجب أن نعمل لذلك الأمر حسابه، والنشاط الجمعي يضحك الشر كما يضحك الخير... فهو يثير القوى الفردية ويقويها فيزداد حماسها في الاندفاع نحو التخريب، فهذا ما يفسر لنا مثلا انتشار الفساد الخلقي بسهولة بين الحشود والجماعات غير المنظمة، وغالبا ما يبلغ هذا الفساد أقصى درجات العنف..."(دوركاي، التربية الأخلاقية، 2015، صفحة 145) ولكن كان ولا بد أن لا يشمل النظام جل تصرفات الطفل لأن هذا يجعله كآلة ويكبح قدراته العقلية الكامنة لهذا كان لزاما على القائمين على العملية التربوية منح الطفل متنفس لتفريغ طاقاته من غير إفراط أو تفريط إذ "لا يصح أن يمتد النظام المدرسي إلى جميع نواحي الحياة المدرسية"(دوركاي، التربية الأخلاقية، 2015، صفحة 148)

ج- المعلم والسلطة الأخلاقية:

والنظام المدرسي يستمد قوته من قوة المعلم وقدرته على احتواء أفراد الفصل، إذ لا بد أن تتوفر مجموعة من الصفات في شخص المعلم كي يكون مؤهلا لاستلام زمام السلطة الأخلاقية وقد عدّها دوركاي كالتالي:

"- أن يكون لدى المعلم تصميم في العزم وقوة في الإرادة

- أن يقطع دابر كل شك وتردد

- أن يشعر المعلم قبل كل شيء شعورا داخليا بحقيقة السلطة التي يجب أن ينقل معناها للأطفال ويشعرهم بها...

- والمعلم يجب أن لا يستمد سلطته من الخارج أي من الخوف الذي يثيره في النفوس من فكرة العقاب، بل يستمدّها من شخصيته والسلطة الحقيقية التي لا تأتيه إلا من داخلية نفسه، فيجب إذن أن يعتقد اعتقادا قويا لا فيما يستمتع به من صفة عالية كالذكاء والإرادة بل في رسالته وفي سمو هذه الرسالة. (دوركاي، التربية الأخلاقية، 2015، صفحة 148).

وأكد دوركاي على ضرورة استشعار المعلم بأهمية السلطة الأخلاقية التي أسندت إليه وربطها بنجاح أو فشل العملية التربوية، "فلكي يخضع الطفل عن طواعية لما تأمر به القاعدة المدرسية، يجب أن يشعر بما لها من صفات تبعث على احترامها أي أن يشعر بالسلطة الأخلاقية الكامنة فيها... ولما كان الطفل لا يعرف القاعدة الأخلاقية إلا عن طريق معلم، أي أن المعلم هو الذي يظهره، فإن هذه القاعدة تستقي سلطتها عن مصدر واحد هو المعلم نفسه..... والمصدر الوحيد الذي يستقي منه المعلم هذه السلطة كامن في ذاتيته أي في الفكرة التي تملأ نفسه عن أهمية رسالته"(دوركاي، التربية الأخلاقية، 2015، صفحة 153) فالسلطة "هي الصفة الأساسية للمعلم وليس ذلك لأنها تحقق النظام الخارجي فحسب بل لأن عليها تتوقف الحياة الأخلاقية في الفصل"(دوركاي، التربية الأخلاقية، 2015، صفحة 154)ولكن الإفراط في استخدام هذه السلطة قد يؤثر على العلاقة بين الطفل والمعلم ويحدث شرخا في النظام الخلقي لهذا"فسلطة المعلم لا بد أن يخففها الحنان حتى لا يتحول الحزم إلى نوع من القسوة أو الجفوة...لأن البناء الخلقي للطفل مازال بعد واهيا مترنحا ومجاهته في هذه الحالة لا يعود عليه بأي فائدة"(دوركاي، التربية الأخلاقية، 2015، صفحة 155)

د- وسائل تعزيز التربية القيمية (المكافآت والعقوبات):

يملك دوركلم تصور خاص للعقوبات المدرسية مختلف عن سبقوه أو عاصروه - بل لن نبالغ إن قلنا قد يكون هو الوحيد الذي تناول هذا الجانب البيداغوجي الحساس بهذا القدر الكبير من الاهتمام والتفصيل- فقد ناقش الجوانب الايجابية لها والآثار السلبية التي قد تترتب عن تطبيقها على الطفل، وفند المقولة التي تفيد بأن العقوبات مهما كان نوعها أو طريقة تطبيقها كلها نافعة ولها فوائد في صالح النظام التربوي، قد يكون العقاب مفيدا في الحد من بعض الأفعال عن طريق زرع الخوف في نفسية الطفل لكي لا يكررها ولكن أهميته تبقى ثانوية والعقوبة لا تستطيع أن تصل إلى الحياة الأخلاقية في مصدرها "فاحترام النظام لا يرجع في أصله إلى الخوف من الجزاءات التي تقمع كل خرق للقاعدة وكل من له خبرة بالحياة المدرسية يعرف جيدا، أن الفصل المحكم النظام لا يعاقب أفراده إلا في ندر، فالعقاب وعدم النظام يسيران جنبا إلى جنب عادة" (دوركلم ، التربية الأخلاقية، 2015، صفحة 155) في المدرسة تحديدا "تكون وظيفة العقوبة أن يستشعر التلاميذ بأن المدرس يظل على احترامه للقاعدة التي تلقوها عنه، وعلى ذلك العقوبة تلعب دورا هاما في سير الأخلاق المدرسية... والنظام لا يستمد سلطته من العقوبة ولكن العقوبة هي التي تحول دون أن يفقد النظام تلك السلطة. (دوركلم ، التربية الأخلاقية، 2015، صفحة 156)، فالعقوبة هي وسيلة مساعدة على تحقيق النظام وليست مصدرا للنظام، وقد ذكر دوركلم بعض الطرق البسيطة لعقاب الطفل في حال خروجه عن القاعدة الأخلاقية داخل المؤسسة التربوية فجعل "الحرمان من اللعب والتكليف بواجبات إضافية بالإضافة إلى أنواع اللوم والتعنيف هي إذن أهم العناصر التي تتكون منها العقوبة المدرسية" (دوركلم ، التربية الأخلاقية، 2015، صفحة 194) إلى جانب العقاب الذي ينتظر الطفل في حالة ما إذا خرج عن النظام هناك مكافآت "ومن الأکید في الواقع أن المكافآت تستخدم على الخصوص في المدرسة كوسيلة لتحفيز الطفل على إتمام ملكاته العقلية أكثر مما تستخدم في تقوية روحه وصفاته المعنوية وهي تمجد النجاح أكثر مما تمجد الاستحقاق الخلقى... فهي أداة للثقافة العقلية أكثر منها للثقافة الأخلاقية" (دوركلم ، التربية الأخلاقية، 2015، صفحة 200) وهي كذلك وسيلة ناجعة تساعد النظام على إحكام قبضته في الحياة المدرسية وقد تكون إذا ما فرضت، ذات تأثير إيجابي على المردود العلمي للطفل المتعلم أكثر من العقوبات ولكن إرفاق كل عمل جيد يصدر عن الطفل بمكافأة قد يؤدي إلى تراجع إحساس الطفل بأهمية الأفعال الأخلاقية في مقابل النجاحات العلمية عندما يقبل على الحياة الاجتماعية وقد نبه دوركلم إلى هذا الأمر بقوله " إذا اعتاد الطفل من نظام الحياة المدرسية أن ينتظر مكافأة على كل ما يقوم به من عمل طيب فما أعظم اليأس وخيبة الأمل التي يشعر بها حين يتعين عليه أن يدرك يوما ما أن المجتمع لا يكافئ على الأعمال الفاضلة بمثل تلك الدقة وذلك النظام، وحينئذ يكون مضطرا لإعادة النظر في تكوينه الخلقى لكي يتدرب على عمل الخير لذاته وهو شيء لم تقم المدرسة بتدريبه عليه" (دوركلم ، التربية الأخلاقية، 2015، صفحة 202) فالمكافآت المدرسية لا تقدّم إلا في مناسبات علمية يبذل فيها الطفل مجهودا عقليا أو فكريا أو بدنيا، ولكن الفعل الخلقى الفاضل الذي يصدر منه تجاه زملائه أو أسرته أو مجتمعه لا يجد من يكافئه عليه وهذا كما قال دوركلم قد يخلف صدمة لدى الطفل ويجعله براغماتيا نفعيا لا يبدي استعدادات

خيرة إلا في وجود مقابل مادي، فينزلق بذلك في منزلقات لا أخلاقية تعصف به ومجتمعها، فالمجتمع يعاقب على المخالفات أكثر مما يكافئ على القيام بالواجبات. لتكون المدرسة هي المسؤول الأول عما آل إليه الوضع الأخلاقي العام.

وبواصل دوركلم فكرته حول تقدم الجهود العقلية على الخلقية فيقول "إننا لا نفكر مطلقاً في أن نجعل التلاميذ يؤدون مسابقات في الأمانة، الصدق،... وكل فكرة عن جائزة للفضيلة تثير في نفسنا دائماً ابتسامة السخرية... إننا نعتقد أن التقدير في حياتنا المدرسية يكاد يقتصر على الاستحقاق العقلي وأن من الواجب أن يخصص جزء أكبر لتقدير القيم الأخلاقية... ويكفي أن يزداد اهتمام المعلم بتلك الصفات الخلقية التي ينظر إليها في الحياة العادية على أنها أمور ثانوية (دوركلم ، التربية الأخلاقية، 2015، صفحة 201)، وهنا يعطي دوركلم حل بسيط لهذا الخلل ويجعل المفتاح في يد المعلم، فيزيده وظيفة أخرى لا تقل أهمية عما يقوم به وهي تمييز السلوكيات الأخلاقية التي تصدر عن الطفل في المواقف المدرسية وتنبهه إلى مدى أهميتها شأنها شأن الاستحقاق العقلي. ومنه غرس القيم الأخلاقية السوية في نفسية الطفل بمكافأته على كل فعل إيجابي.

6-2. الجماعات الاجتماعية وعلاقتها بالتربية:

اهتم دوركلم كثيراً بكيفية إدماج الطفل في الجماعة الاجتماعية وتعليمه كيف يتحلى بالقيم الوطنية، وكيف تغلب على الطبع الأناني الذي يرافقه كصفة طبيعية في مرحلة طفولته أو بالأحرى مرحلة ما قبل المدرسة، فبعد تعليم الطفل النظام وتعليمه الالتزام بقواعد المؤسسة التربوية كان ولا بد من الانتقال للمرحلة الثانية في الإعداد الخلقى حيث "في العنصر الثاني للأخلاق الذي لا بد أن نغرسه للطفل هو التخلق بجماعة اجتماعية بوجه عام وفي التعلق بالوطن على الأخص، بشرط لا يفهم الوطن علمانه شخصية لاهم لها إلا الأناية والعدوان، بل على أنه عضو من الأعضاء التي تتحقق بها فكرة الإنسانية..." (دوركلم ، التربية الأخلاقية، 2015، صفحة 204) وي طرح دوركلم تساؤلاً مهماً يكون فاتحة لتقدم أفكاره حول الميول الغريبة لدى الطفل فيقول هل هناك ميول غريبة أو منزهة لدى الطفل وما الشكل الذي تتخذه هذه الميول إن وجدت؟

إذن فطغيان الطبع الأناني في شخصية الطفل جعل من الصعب أن يلاحظ عليه سلوكيات أو أفعال تهدف إلى الصالح العام سواء في صالح أسرته أو مجتمعه أو أقرانه وهذا ما يسمى بالميل الغريبة، وقد فرق بين الميل الأنانية والميل الغريبة فقال "الميل الأنانية هي عادة تلك الميل التي تهدف إلى لذة فاعلها، أما الميل الغريبة فهي تلك التي تتخذ موضوعاً لها لذة كائن مغاير لفاعلها..." (دوركلم ، التربية الأخلاقية، 2015، صفحة 205) واستفاض أكثر في هذا التمييز فقال "الأولى أي الأنانية كامنة في التركيب الطبيعي للإنسان، أما الثانية فتعد ثمرة متغيرة إلى حد ما للحضارة والتربية... ولا شك أن الطفل في بدء حياته يتعرض للظروف نفسها التي تعرض لها الإنسان في بدء التاريخ- الإنسان البدائي معروف بأنانيته وغريزته فهو إذن أناني محض بدوره، وعلى التربية أن تتركب فيه من جديد تلك النوازع الغريبة التي يفتقر إليها أصلاً..." (دوركلم ، التربية الأخلاقية، 2015، صفحة 205) والميول الغريبة "... يكون موضوعها خارج شخصيتنا الفردية فهي لا تنتمي إلينا بطبيعتها... كالأماكن التي

أمضينا فيها جزء من حياتنا وهناك ما هو أبعد من ذلك كالجتماعات الاجتماعية التي ننتظم في سلوكها مثل الأسرة النقابة والوطن والإنسانية وكل ما يساعد على تدعيم الحياة الجماعية من علم وفن ومهنة وأخلاق وغيره، وكل هذه الأشياء تشترك في صفة واحدة هي أن لها وجودها الخاص المتميز عن وجودنا مهما كانت الصلة التي تربطها بنا فنحن إذ نتعلق بها ونسعى إليها إنما نتعلق بشيء مغاير لنا ونسعى إليه.... تلك الميول هي التي يحق لنا أن نطلق عليها اسم الغيرية" (دوركايم ، التربية الأخلاقية، 2015، صفحة 210)، وقد ربط دوركايم الإجابة على سؤاله في هل يملك الطفل ميولا غيرية بالرغم من طبعه الأناني بكون الطفل كائنا واعيا وهذا ما يجعل لديه ولو حدا أدني من النوازع الغيرية ،"إن الطفل ليس ذلك الكائن الأناني الصرف الذي كثيرا ما وصفوه لنا، فمن مجرد كونه كائنا ذا وعي مهما كانت بدائية ذلك الوعي يمكننا أن نؤكد أنه قادر على نوع من السلوك الغيري وذلك مستهل حياته..". (دوركايم ، التربية الأخلاقية، 2015، صفحة 214) وقد دلل على وجود مثل هذه الميول بالعادات التي يمارسها الطفل في حياته اليومية فقال "إننا نعلم مدمسرة تعلق الطفل بمختلف الأشياء التي يحتوي عليها وسطه المألوف، ومبلغ قوة ذلك التعلق... فهو يؤثر ألا يشرب من كوب غير كوبه المعتاد، وألا ينام على أن ينام في غرفة غير تلك التي ألفها، فهو يتعلق بتلك الأشياء إلى حد انه يتألم إذا ما افترق عنها.... وهذا يدل على أن الطفل يملك القدرة على الارتباط بشيء غيره.... ثم إن الطفل لا يتعلق على هذا النوع بالأشياء فقط، بل بالأشخاص أيضا (الأم المرضعة، الأب،...).... وإنا لنلمس بوضوح في كل هذه الحالات أن الطفل يستشعر في نفسه الحاجة إلى أن يربط وجوده بوجود شخص آخر، وأنه يعاني ألما إذا ما فصمت هذه الرابطة... فغيرية الطفل ترجع إلى صفة من صفات الطفولة... تلك الصفة هي نزعة التمسك بالتقاليد لدى الطفل، وتعلقه بالعادات التي كونها لنفسه، فما أن يعتاد الطفل ضربا معيناً من الشعور أو طريقة للسلوك، حتى يصبح تخليه عنها أمراً عسيراً فيتمسك بها، وبالتالي يتمسك بالأشياء التي تتحكم بوجودها.... ذلك بأن الحياة الباطنية للطفل خاوية إلى أبعد حد.... فهو لذلك ليس على استعداد لمقاومة تدخل عناصر غريبة على عكس شخصية البالغ..". (دوركايم ، التربية الأخلاقية، 2015، صفحة 215)

ومن خلال تشخيص إميل دوركايم لغيرية الطفل توصل إلى النتيجة التالية "هناك غيرية لدى الطفل وهي غيرية ساذجة تتغلب عليها الأنانية، والتربية لا تفعل أكثر من تنميتها، والمشاعر الغيرية ضعيفة في بداية حياة الطفل وهذا راجع إلى ضيق أفق ذهن الطفل فلا بد من أن نوسعه رويداً، فهي تمتد إلى ما وراء هذه الدائرة المحيطة بشخصه وهي الدائرة التي لا يتجاوزها الطفل إلا بعناء وبقدر ضئيل، ولا بد من أن نعرفه بالكائنات التي لا يدركها في أول الأمر إلا إدراكاً مبهماً وأهم من ذلك أن تكون لديه فكرة واضحة بقدر الإمكان في تلك الجتماعات الاجتماعية التي ينتمي إليها بدون أن يدري وهنا يبلغ دور المرابي أوج أهميته..." (دوركايم ، التربية الأخلاقية، 2015، صفحة 224). كما وضع دوركايم مجموعة من الطرق لتنمية الميول الغيرية لدى الطفل وتقوية رابطته بالجتماعات التي حوله إذ "لا يكفي من أجل حث الطفل على التعلق بتلك الجتماعات أن نصورها لذهنه فحسب... بل لا بد أن يتكرر هذا التصوير بقوة وإلحاح يجعلانها بفضل التكرار وحده عنصراً لا يغفله... فنحن لانستطيع التعلق بالأشياء إلا من خلال

التأثيرات التي تفرضها علينا...." (دوركاييم ، التربية الأخلاقية، 2015، صفحة 225) كما "علينا أن نوسع ذهن الطفل رويدا رويدا بحيث ندخل فيه بالتدرج فكرة الجماعات الاجتماعية التي يساهم فيها الآن أو سيندمج فيها في المستقبل، وأن نستعين بالتكرار لكي نربط تلك التصورات رباطا وثيقا بأكبر عدد ممكن من الحالات الذهنية الأخرى بحيث يسترجعها العقل وتستحضرها الذاكرة على الدوام وتصبح لها في الذهن مكانة تلزم الطفل بحفظها والحرص عليها من كل ضعف ونقصان، علينا أن نستغل حرارة الكلمات التي تصف له بما تلك المشاعر...وأن نضفي على هذه التصورات حماسة عاطفية تجعل منها قوى فعالة أكيدة الأثر، ثم نمي هذه القدرة على الفعل والتدريب ذلك هو المنهج العام الذي يتعين علينا اتباعه لكي نجعل الطفل يتعلق بالغايات الاجتماعية التي يجب عليه استخدامها. (دوركاييم ، التربية الأخلاقية، 2015، صفحة 225)

ويرى دوركاييم أن جملة التأثيرات التي يتلقاها الطفل من محيطه تعد عوامل مساعدة على تنمية ميوله للتفاعل مع جماعات اجتماعية غير أسرته وجماعة أقرانه وهذه التأثيرات إنما تتحول إلى سلوكيات بفضل الجهود التي يبذلها هؤلاء (أفراد الأسرة بالتحديد) من شرح وإقناع الطفل بأهمية تشبعه بالقيم الوطنية وحب الخير للآخرين والقيام بواجباته تجاه مجتمعه، وهذا طبعاً قد يأخذ به للدخول في علاقات اجتماعية مع فئات كثيرة ومختلفة مما يساعده على اكتساب شخصية مجتمعية متشعبة بالوطنية.

- دور البيئة المدرسية في تنمية الميول الغيرية لدى الطفل:

والبيئة المدرسية في نظر دوركاييم هي المكان المناسب لبداية تنمية هذه الميول" في البيئة المدرسية يعيش الطفل في جماعة أوسع من الأسرة ومن المجتمعات الصغيرة التي كان يكونها مع رفاقه.... بين أفراد تجمعهم ظروف من العمر ومن الحالة الاجتماعية متقاربة إلى حد بعيد وهي في ذلك أشبه بالمجتمع السياسي غير أنها محدودة بدرجة تمكن من قيام صلات شخصية بين كل أفرادها.... فالطفل قبل دخوله إلى المدرسة لم يكن يعرف سوى نوعين من الجماعات: الأسرة أولاً حيث تصدر روح التضامن عن روابط الدم ومظاهر التقارب المعنوي الناجمة عنها... وهناك أيضاً تلك الجماعات الصغيرة من الأصدقاء والرفاق التي أمكن تكوينها خارج الأسرة بالاختيار المحض،... والروابط التي تجمع بين أفراد وطن واحد لا ترجع إلى القرابة ولا إلى الميول الشخصية، فهناك بون واسع بين الحالة المعنوية التي يكون عليها الطفل حين مفارقتها الأسرة وتلك التي أصبح يتعين عليه الاندماج فيها، ومن المحال أن يتم الانتقال طول هذه المسافة بأسرها دفعة واحدة، والبيئة المدرسية هي خير مرحلة وسطى يمكن تصورها بين هاتين المرحلتين." (دوركاييم ، التربية الأخلاقية، 2015، صفحة 266)، وقد استدل على ذلك بتاريخ الاجتماع الإنساني فقد اتجهت " المجتمعات في وقت ما إلى عدم الاكتفاء بأسرة واحدة وإنما التجمع في عدة أسر، وتكوين عشيرة أو قبيلة راجع إلى كون التربية الأخلاقية لا يتولاها الوالدان بصفة مباشرة وإنما يضطلع بها شيوخ العشيرة في الجيل الواحد، حيث يجمعون الصغار حين بلوغهم سناً معيناً ويلقونهم سويًا بمبادئ مختلفة منها الدينية والطقوس والشعائر، وكل ما يعتبر من التراث ومقدس بالنسبة لهذه العشيرة، وهذه الممارسات القديمة في جمع الأطفال وتلقينهم هي في الحقيقة

أشبه إلى البيئة المدرسية، وهم عبارة عن جماعات مدرسية حقيقية من حيث الممارسة وإضافة المجتمع الحديث لهذه الممارسة هو الاسم أي المدرسة" (دوركاي، التربية الأخلاقية، 2015، صفحة 227)

وقد أعطى دوركاي أهمية خاصة لتنمية العلاقة ما بين الطفل والوطن ونظر إليها نظرة التقديس والإعلاء، فتكون بذلك قيم المواطنة نقطة رئيسية في برنامج المدرسة بهدف تنمية الميول الغيرية للطفل وكأجا أساسيا لأي سلوك انحرافي يصدر عنه يضر به نفسه ووطنه فقال "هناك مراتب مختلفة للروح الخلقية نظرا لتفاوت القيمة الأخلاقية للمجتمعات التي يساهم فيها الفرد فهناك مجتمع له على الآخرين ميزة الصدارة وهو المجتمع السياسي أو الوطن وعلى المدرسة أن توجه الطفل نحو التعلق بهذا المجتمع على وجه الخصوص.... فالوطن لا بد له من أداة خاصة لغرس حبه في النفوس، والمدرسة هي البيئة الوحيدة الأخلاقية التي يمكن أن يتعلم فيها الطفل كيف يعرفه وكيف يحبه وهذا بالضبط مصدر أهمية الأثر العظيم الذي تحققه المدرسة اليوم في التكوين الأخلاقي للدولة" (دوركاي، التربية الأخلاقية، 2015، صفحة 78)

6-3. الدولة وعلاقتها بالتربية:

تعتبر الدولة الراعي الأساسي للتربية الرسمية من خلال الأدوار التي تقوم بها في تشييد المؤسسات التربوية ووضع المخططات والبرامج التي ستسير عليها، كما توكل إليها مهمة التمويل المادي وتجهيز هذه المؤسسات بالوسائل والإمكانات المادية والبشرية لضمان السير الحسن للعملية، والأهم من ذلك ضمان نجاح هذه المؤسسات في تحقيق الأهداف التي شيدت من أجلها، ولكن دوركاي له رأي آخر في هذا الجانب إذ يرى أنه من الصالح العام أن توسع الدولة من هامش المشاركة في بناء المدارس على وجه الخصوص وتسييرها إلى فئات اجتماعية أخرى في حدود معينة فيقول "ما يجب على الدولة أن تقوم به من أجل المصلحة العامة هو أن تترك المجال لإنشاء مدارس أخرى غير هذه التي تخضع لمسئوليتها بشكل مباشر، ولكن لا يجب في أي حال من الأحوال أن تكون بعيدة عما يجري في إطار هذه المدارس، والتربية التي تمارس في إطار هذه المدارس يجب أن تبقى خاضعة لرقابتها، وفي هذا السياق لا يسمح لمن لا يحمل كفايات خاصة أن يقوم بوظيفة المربي وهي كفايات يعود أمر تقديرها إلى الدولة... (دوركاي، التربية والمجتمع، 1996، صفحة 80)، وعلى غرار الدعم المادي الذي تمنحه الدولة للمدارس، كان لزاما عليها مراقبة وتضييق مجال التداخلات الفكرية أو بتعبير أدق الصراعات الفكرية التي قد تنتقل من الساحة المجتمعية إلى الساحة المدرسية فتصبح بذلك مبادئ المجتمع في خطر ويصبح الطفل مستهدفا "فالمدرسة ليست ملكا لفئة اجتماعية معينة والمعلم لا يقوم بواجبه عندما يحاول أن يفرض على الأطفال أفكار الفئة الاجتماعية التي ينتمي إليها والتي تبدو له شرعية. ولكن على الرغم من كل التناقضات القائمة يوجد لدينا في الوقت الراهن وفي أصل ثقافتنا طائفة من المبادئ المشتركة... والدولة هنا معنية بالعمل على إطلاق هذه المبادئ الأساسية وتعليمها في المدارس وإيقاظها في نفوس الأطفال..." (دوركاي، التربية والمجتمع، 1996، صفحة 81)، وقد حدد دوركاي الحالات التي يكون فيها تدخل الدولة في الشأن التربوي ضروريا إلى جانب الأسرة فقال: "غالبا ماتم المقابلة بين واجبات الأسرة وواجبات الدولة، فالطفل ينتمي إلى أبويه وهما المعنيان بتوجيه نموه العقلي والأخلاقي.... وهنا ينظر

إلى دور الدولة التربوي في حدوده الدنيا وتقتصر مهمة الدولة في هذه الحالة على أداء دور تربوي مساعد للأسرة، وعندما تكون الأسرة غير قادرة على القيام بوظيفتها وواجباتها التربوية فإن من الطبيعي أن تقوم الدولة بأداء هذه المهمة وتستطيع الدولة أن تجعل من العملية التربوية عملية غاية في السهولة وذلك عندما تضع المدارس في خدمة الأطفال حيث تستطيع الأسر إذا شاءت أن ترسل أبناءها... (دوركلم، التربية والمجتمع، 1996، صفحة 78)

4-6. الفضاء العام وعلاقته بالتربية:

اعتبر دوركلم المجتمع مصدرا للقيم ومفسرا لها وربط وجودها بوجود المجتمع، فصرح "بأن المجتمع هو الواقع الذي يفسر لنا القيم التي نتمسك بها ونخضع لها، ونخدمها ونضحى بحياتنا من أجلها لأنها منه واليه، ولأنه لا أساس لها من غيره إذ أنها ظواهر تكون اذا كان، وتول إذا زال، فالمنطق الذي يضبط تفكيرنا والأخلاق التي تنظم سلوكنا والدين الذي يرضي حاجتنا إلى المطلق، والعلم الذي تحتك به حجب الجهول والفن الذي نمسك به على جمال لكون قيم تدين له بوجودها..". اقتبسها الكاتب من كتاب دوركلم أشكال الحياة الدينية (ميمون، 1980، صفحة 41)

وتطرق في المقابل إلى طبيعة العلاقة الوثيقة التي تربط بين التربية والمجتمع، مبيّناً التربية هي نتاج للحياة الاجتماعية فقال "إن نموذجنا التربوي نتاج للحياة الاجتماعية في أدق تفاصيلها، فالمجتمع هو الذي يطبع فينا صورة الإنسان الذي يجب أن نكونه، وهي الصورة التي تعكس في الوقت نفسه الخصائص المتنوعة للمجتمع المعني" (دوركلم، التربية والمجتمع، 1996، صفحة 133)، فالمجتمع هو الذي يفصل النظام التربوي حيث أنه "لكل مجتمع في الواقع، وفي لحظة ما من مستويات تطوره، نظام تربوي يفرض نفسه على الأفراد عبر قوة لا تقاوم" (دوركلم، التربية والمجتمع، 1996، صفحة 60) و"لكل شعب في واقع الأمر، نظام من الأفكار والمشاعر والممارسات وعلى التربية تقع مسؤولية نقله إلى الأجيال المتلاحقة، وذلك دون تمييز بين الفئات الاجتماعية التي ينتمي إليها الأطفال وتلك هي التربية المشتركة نفسها التي تشكل إلى حد ما التربية الحقيقية، وهي التربية الوحيدة والجديرة بأن تحمل ذلك الاسم حقا، ويضاف إلى ذلك أنها التربية التي تأخذ طابع الهيمنة وذلك بالقياس إلى أنماط التربية الأخرى كافة..." (دوركلم، التربية والمجتمع، 1996، صفحة 128) إذ شدّد هنا على الاختلاف الجوهرية الذي يطبع النظام التربوي بين المجتمعات المختلفة، فلكل مجتمع تصورات الخاصة نحو النظام التربوي الذي يريد أن يطبقه على الأفراد، بشرط أن يكون هذا النظام مستمدا من مرجعياته الدينية والتاريخية والثقافية، وأن يخدم الصالح العام، و"تباين التربية اليوم أيضا بتباين الطبقات الاجتماعية ومع تباين المجتمعات الإنسانية فالتربية التي تسود في المدينة ليست كذلك التي تسود في الريف، والتي تسود في إطار الطبقة البورجوازية هي غير تلك التي تسود في أوساط العمال..." (دوركلم، التربية والمجتمع، 1996، صفحة 125)، وفي حالة ما إذا "أراد أي شخص أن يربي أولاده خارج أعراف وعادات مجتمعه فإن ذلك ينعكس سلبا على حياة أطفالنا وتظهر نتيجة ذلك عندما يصبح أطفالنا راشدين حيث لن يستطيعوا التكيف مع أقرانهم... عندما نربي أطفالنا وفقا لأفكار قديمة جدا أو سابقة للعصر فإنهم في الحالتين لا ينتمون لزمانهم وبالتالي فإنهم لا يوجدون في إطار شروط حياة طبيعية" (دوركلم، التربية والمجتمع،

1996، صفحة 61) فالأنماط السلوكية والممارسات القيمية السائدة في الفضاء العام هي في الحقيقة ترجمة لما يتلقاه الفرد ويتربى عليه في أسرته ومدرسته، وكلما تقاربت وتناسقت قيم الأسرة مع قيم المجتمع كلما كانت التنشئة الاجتماعية التي يتلقاها الفرد أكثر توازنا واستقرارا، وكلما توافقت محتويات المناهج والمقررات الدراسية مع أهداف المجتمع وغاياته تحقق استقرار النسق القيمي العام ويرى هابرماس أن " وجود الفرد في فضاء عمومي هو وجوده داخل فضاء مؤسس على مبادئ ومحكوم بقيم حارسة للإنسانية ويتمتع فيه الفرد بالحرية..". (شعالل، 2021، صفحة 215)

خاتمة:

بناء على ماسبق اتضح أن إيميل دوركايم اهتم كثيرا بتفعيل دور بعض المؤسسات الاجتماعية للنهوض من جديد بالقيم التربوية في مجتمعه، وأبدى اهتماما بالغا في محاضراته السوسيو تربوية بالكيفية التي يتم بها تفعيل الدور التربوي لهذه المؤسسات الحساسة أهمها المدرسة والجماعات الاجتماعية (على رأسها الأسرة) والدولة حيث:

- دعى إلى ضرورة تحرير المدرسة من الممارسات التربوية القديمة القائمة على التلقين كونها لا تخدم فكرة التربية الأخلاقية بل لا بد من الاستعانة بالوسائل الملائمة لتنمية الاستعدادات العامة، وبمجرد أن توجد هذه الاستعدادات لا تلبث أن تتشعب بسهولة من تلقاء نفسها حسب ما تقتضيه تفاصيل العلاقات الإنسانية؛
- على القائمين على التربية النظامية ألا يحصروا المواضيع المتعلقة بالتربية الأخلاقية في جدول الفصل الدراسي وألا يربطوها بجدول زمني معين بل لا بد أن تمتزج تلك التربية بكل الحياة المدرسية مثلما تمتزج الأخلاق ذاتها بالحياة الجماعية بأسرها؛
- رأى أن الدور الأساسي للنظام المدرسي يتجلى في تعزيز استعدادات الطفل وتهذيب سلوكه و تنمية الجانب الأخلاقي في تفكيره، باعتباره(النظام)الوسيلة التي تسمح بتعليم الطفل الاعتدال في رغباته والحد من مختلف شهواته وتحديد موضوعات نشاطه، لأن النظام المدرسي حسب تصور إيميل دوركايمعبارة عن صورة مصغرة للنظام الاجتماعي؛
- ركز على ضرورة الاهتمام بالمعلم باعتباره فاعلا مهما في العملية التربوية لأن القاعدة الأخلاقية تستمد سلطتها من سلطة المعلم لهذا أعطى مجموعة من الصفات التي لا بد أن تتوفر في المعلم كي يكون قادرا على تحقيق غايات التربية الأخلاقية من قبيل العزم والإرادة والشعور الداخلي بمدى قدسية الرسالة التي يحملها.
- رأى في العقوبة شرطا ضروريا لاستمرار النظام ولم ينظر إليها على أنها قد تكون سببا في نفور الطفل من التعليم، وفي المقابل شدد على أهمية تخصيص مكافآت للأطفال لتقدير التزامهم بالقيم الأخلاقية، مثلما يكافؤون على تفوقهم العلمي كي لا يخيل للأطفال أن السلوكات السوية لا تحظى بالقبول الاجتماعي فيتراجع بذلك مستواهم الأخلاقي؛
- ومن أجل تفعيل دور الجماعات الاجتماعية رأى دوركايم بضرورة احتضان الطفل وتوسيع ذهنه وتعييده على فكرة الجماعة وذلك بالاستعانة بالتكرار لربط تلك التصورات بأكبر عدد ممكن من الحالات الذهنية الأخرى، وهنا

أشار إلى التربية على المواطنة التي تستمد أساسا من منظومة قيم المجتمع، ورأى بأن الأسرة والبيئة المدرسية فاعلين مهمين في تحقيق هذا الهدف؛

- أما الدور التربوي للدولة فقد تصور إميل دوركايم أن وظيفتها تكمن في إعداد المناهج والمقررات الدراسية التي تحدم منظومة قيم المجتمع واختيار الكفاءات التربوية القادرة على تحقيق أهداف وغايات التربية، والحرص على إبقاء المؤسسات التربوية في معزل عن الصراعات والتجاذبات الفكرية التي قد تشوش على العملية التربوية من خلال إبقاء رقابتها عليها؛

- اعتبر الفضاء العام حاضنا للقيم ومصدرا لها فينفس الوقت ورأى بضرورة تدريب الطفل وتلقينه عادات وتقاليد مجتمعه بعيدا عن الطبقة الاجتماعية السائدة التي تغذي التفرقة وتشعل النزاعات في المجتمع الواحد، كما يعتبر من الضروري أن يتميز الفضاء العام بنظام تربوي موحّد وأن يساير التطورات الحاصلة في مختلف الأنظمة مع مراعاة خصوصية المجتمع وتاريخه وثقافته.

قائمة المراجع:

- 1- الربيع ميمون. (1980). نظرية القيم في الفكر المعاصر بين النسبية والمطلقية. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- 2- السعيد بولمزود. (2013). قاموس علم الاجتماع موسوعة مفهوم المجتمع (الإصدار 1). قسنطينة، الجزائر: مخبر علم الاجتماع والاتصال للبحث والترجمة.
- 3- إميل دوركايم. (2015). التربية الأخلاقية (الإصدار 5). (محمد السيد بدوي، المترجمون) القاهرة: المركز القومي للترجمة.
- 4- إميل دوركايم. (1996). التربية والمجتمع (الإصدار 5). (علي اسعد وطفة، المترجمون) دمشق: دار معد للطباعة والنشر.
- 5- إميل دوركايم. (2015). التربية الأخلاقية. (السيد محمد بدوي، المترجمون) المركز القومي للترجمة.
- 6- ايوب دخل الله. (2013). التربية ومشكلات المجتمع في عصر العولمة. الجزائر: دار الخلدونية للنشر والتوزيع.
- 7- بدران شبل، و احمد فاروق محفوظ. (1999). أسس التربية (الإصدار 1). الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية.
- 8- جاستن بوتول. (بلا تاريخ). تاريخ علم الاجتماع. (غنيم عبدون، المترجمون) مصر: مطابع الدار القومية للطباعة والنشر.
- 9- حسام الدين شعلال. (2021). الفضاء العام وتطبيقاته الاجتماعية مقارنة نظرية تاريخية. الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والانسانية، 13(1)، 215.
- 10- سعيد اسماعيل علي. (2002). نشأة الفكر التربوي وتطوره. القاهرة: عالم الكتب.

- 11- عبد الغني عماد. (2006). *سوسيولوجيا الثقافة المفاهيم والإشكالات من الحداثة الى العولمة* (الإصدار 1). بيروت، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.
- 12- علي أسعد وطفة. (2011). *أصول التربية*. الكويت: لجنة التأليف والتعريب والنشر.
- 13- محمد حسن العمارة. (1999). *أصول التربية* (الإصدار 1). عمان: دار المسيرة.
- 14- محمد عباس ابراهيم. (2013). *الثقافة والشخصية*. مصر: دار المعرفة الجامعية.
- 15- مروان المدبر. (جانفي، 2017). *سوسيولوجيا التربية بعض المفاهيم والأسس النظرية*. مجلة العلوم الاجتماعية، العدد 22، 189.